محاضرات اللغة والمجتمع

الأستاذ: د. علي حلواجي

علاقة اللغة بالمجتمع

محاضرة .. في مقياس اللغة والمجتمع.

العناصر :

1 – تعريف اللغة، لغة و اصطلاحًا.

2– نشأة اللغة لدى الإنسان.

3– وظائف اللغة.

4– ارتباط اللغة بالمجتمع.

1– تعريف اللغة :

لفظ " لغة " مصدر من الفعل الثلاثي " لَغَا يلغُو " أي نطق وتكلّم وأصلُه " لُغْوَة " على وزن " فُعْلَة " حُذفت الواو للتخفيف فَصَار "لُغة" على وزن "فُعَة " مثل : كُوَةٌ و ثُبَةٌ (جماعة) وقُلَةٌ (عُود).

أما اصطلاحا فقد عرّف علماءُ وباحثون كثيرون عربٌ وغيرهم قدماء ومحدثون اللغة ، ونكتفي هنا بذكر تعريف واحد وهو أشهر تعريف للغة وأجمعه وأشمله حتى إن التعريفات الأخرى لم تُضف إليه الشيء الكثير وإن اختلفت الألفاظ و التعابير وزوايا النظر ، ذلك هو تعريف العالم اللغوي العربي (بإسلامه) المشهور أبي الفتح عثمان بن جنّي (ت392 ببغداد) إذْ يقول في كتابه " الخصائص " عن اللغة :

« أمّا حَدُّها (أي تعريفها) فإنها أصواتٌ يُعَبِّر بها كلُّ قوم عن أغراضهم ».

فهذا التعريف للغة يتضمّن أربعة عناصر أساسية لمفهوم اللغة وهي قضايا لغوية كبرى تناولتها علوم اللغة و اللسانيات الحديثة بالدراسة ، وعناوينها كالآتي :

- طبيعة اللغة من حيث إنها أصوات .
- وظيفة اللغة من حيث إنها تعبير .
- الطابع الاجتماعي للغة وارتباطها بالجماعة اللغوية (المجتمع).
- الطابع العقلي أو النفسي المتمثل في علاقة اللغة بالفكر وما له به علاقة كالثقافة وغيرها .

وسنتناول في هذه الدراسة أهم ما جاء في هذه العناصر حسب ما تقتضيه طبيعة المادة التي نحن بصددها إلاّ أننا بالنسبة للعنصر الأول المتعلق بالصوت نكتفي بالإشارات الآتية .

فإذا كانت اللغة هي الأصوات المنطوقة والمسموعة والمفهومة كما جاء في تعريف ابن جِنّي وما يدعمه ويؤيده من آراء أخرى قديمة وحديثه فإن بقية العلامات والإشارات غير الصوتية تدعّم اللغة الصوتية وتعبّر أحيانا عمّا تعجز عنه الأصوات حسب الظروف والحالات خاصة حين يكون الصوت غير ممكن أو ممنوعًا أو يؤدي إلى خطر أو لا يكفي لتبليغ المعنى ..

لدرجة أن بعض المُحدثين من العلماء أدخل كُلَّ ذلك في تعريف اللغة ، مثل فندريس Vendryes الذي قال عن اللغة :

« .. إنها في الحقيقة تشتمل على كل ما يُمكن أن يُعبّر به الإنسان عن فكرة أو انفعال أو موقف أو رغبة معيّنة ، فالصورة لغة ، والأشكال المرسومة لغة ، والأجسام والحركات الجسمية لغة ، والإشارات البصرية والسمعية لغة ، والألحان والنغمات الموسيقية لغة ، إن كل أعضاء الحواس يمكن استخدامها في خلق لغة ، فهناك لغة الشمّ ولغة اللمس ولغة البصر ولغة السمع ، وهناك لغة كلما قام شخصان فأضافا معنى من المعاني إلى فعل من الأفعال بطريقة الاتفاق ، وأحدثا هذا الحدث بقصد التفاهم بينهما ، فعِطْرٌ يُنشرُ على ثوب أو منديلٌ أحمرُ أو أخْضَرُ يَطَلُّ من جيب سِتْرة ، أو ضَغْطَةٌ على يد يَطُولُ أمَدُها قليلًا أو كثيرًا [أو غمزة و نظرةٌ مُتميّزة] ، كل هذه تكون عناصر من لغة مادام هناك شخصان [على الأقل] قد اتفقنا على استعمال هذه العلامات في تبادل أمْر أو رأي.» هذا رأي – كما قلنا – ولكن كل ذلك يبقى لغةً محدودةً وتبقى لغةُ الأصوات هي اللغة الحقيقية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن " الكتابة" التي لها صلةٌ وثيقةٌ باللغة الصوتية هي نظام من النُظّم المذكورة ولا تدخل في اللغة الأصلية وإنما هي علامات لها ، ولذلك قال عنها سيمون بوتر (Simon Potter) هي " رموزالرموز " Symbols of symbols.

(وفي المقرر موضوع خاص " بالشفاهية و الكتابية ").

2- نشأة اللغة لدى الإنسان :

اللغة ظاهرة اجتماعية ، وأقدم المجتمعات التي سجلها لنا التاريخ كانت لها لغاتٌ ناضجةُ التكوين – كما يقول العلماء – ولقد شغلت الإنسان هذه اللغة التي جرت على لسانه منذ آلاف السنين وحاول الكشف عن سرّ نطقه بها وكُنْه استعماله لها ، ولم تقتصرْ هذه المحاولات على علماء اللغة والنحو والأدب بل امتدت إلى المشتغلين بالفكر وقضايا الإنسان ولغته من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع والقانون والسياسة.

ومن القضايا التي ناقشها القدماء والمحدثون "نشأةُ اللغة " وما أول لغة تحدث بها الإنسان ونشأة اللغات المعروفة واللغة الأم التي تعود إليها.؟

ولكن مثل هذه القضايا كانت مجرد افتراضات لا يُؤيدها دليلٌ ماديٌ وعلميٌ[1] ، وذلك لأن الأمر يتعلق بالمراحل الإنسانية الأولى التي لم يُسجلها لنا التاريخ.

وفي هذا يقول الباحث اللغوي فندريس Vendreys : « إنّ مشكلة أصل اللغة تقعُ خارج مجال العالم اللغوي، فالواقع أن المشكلة مرتبطة بأصل الإنسان والمجتمع ، وتنتمي إلى التاريخ الإنساني البدَائي . لقد نشأت اللغة بتطور المُخّ الإنساني وتنظيم المجتمع ومن المستحيل أن نُبَيِّنَ الصورة التي اتخذتها اللغة الإنسانية في أول الأمر. »[2]

وفحوى هذا القول مذكور في كل المراجع التي تناولت موضوعه .

وأهمُّ مسألة في هذا الباب هي : هل اللغة توقيف أم اصطلاح ؟

أي هل هي وحيٌ و إلهامٌ من الله سبحانه وتعالى للعباد أم أن البشر هم الذين اخترعوها واتفقوا عليها لحاجتهم إليها ؟

والآراء في هذه المسألة ثلاثة أساسية وهي :

- الرأي الأول : أنها توقيفية ، فقد علّمهم الله إيّاها بدليل القرآن الكريم : « وعَلّم آدمَ الأسماء كُلَّها » (البقرة 31) .

ومنهم من أورد نصوصًا من كتب سماوية أخرى تحمل نفس المعنى .

---

[1] - أصول تراثية ص79

[2] - ع / نصوص في فقه اللغة العربية ، ص56.

- الرأي الثاني : على أن اللغة اصطلاحية وضعها البشرُ ثم قيل وضعها آدم (عليه السلام) ، وتأوَلوا (أي فسَّروا) الآية السابقة على أن معنى « وعَلَّم آدم » أقْدَرَهُ (أي جعله قادرًا) على وضعها .

- الرأي الثالث : الوقفُ أي لا يُدْرى أهي من وحي الله أم من وضع البشر لعدم وجود دليل قاطع في ذلك .

وهذا الرأي يندرج تحت القول السالف الذكر (لفندريس) وقد اختاره ابن جني ، وقال : سواءً قلنا بالتوقيف أم بالاصطلاح فإنّ اللغة لم توضع كلّها في وقت واحد بل وقعت متلاحقة متتابعة .[3]

وهذا المعنى الأخير تؤيَده طبيعة اللغات في واقع الحياة وما يطرأ عليها من تطور واندثار وما هي عليه من قابلية للتوليد و الاشتقاق و الإثراء حتى قيل عنها أنها كالكائن الحي.

3- وظائف اللغة :

تتمثل الوظيفة الأساسية للغة في تعريف ابن جنّي في لفظ " يُعبّر" حين قال " يُعبّر بها كل قوم " أي الوظيفة هي " التعبير " ، وفي هذا يتفق ابن جِنّي مع غالبية علماء اللسانيات الذين يرون أن وظيفة اللغة هي التعبير أو التواصل أو التفاهم .

إلاّ أن الاجتهادات الحديثة وسّعت هذه الوظيفة ولم تحصرها في التعبير التواصلي بين الأفراد لأننا في الواقع نجد وظائف كلامية أخرى للغة تتمثل في أنواع مختلفة من الكلام تندرج تحت أبواب اجتماعية مختلفة في مقابل الأبواب النحوية وتتمثل في الأشكال الآتية :

-1- الكلام الانفرادي (المونولوج) حين يتكلم الفرد وحده بشكل أو بآخر كالقراءة الانفرادية ، وتدوين الملاحظات التي لا يريد بها الكاتب إلاّ نفسه ، وتحديث الإنسان نفسه ...

-2- استعمال اللغة في الصلاة و الدعاء ومناجاة الله ، فكل ذلك أبعد من يكون نقلا للفكر بأية صورة من الصور.

-3- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف غايةً محددةً مثل لغة التأدَب والمجاملات والتهنئة (حيث نجد عبارات تُكرّر دون قصد معناها وأسئلة تطرح لا يراد منها الجواب ، كما في السلام) وكذلك الحديث عن أحوال الطقس وكل ما يراد به قضاء الوقت أو تلطيف جو الجلسة التي يُخيّم عليها الصمت..

[3] - ملخص هذه الآراء من كتاب الاقتراح للسيوطي ص38.

-4- اتخاذ اللغة وسيلة للتسلي و اللعب بالأصوات سواء عند الكبار أم الصغار وذلك بقصد التلذّذ و الانتشاء فقط . فكثيرًا ما نجد أناسًا كبارًا وصغارًا يردّدون كلمات وأصواتا لا يقصدون منها إلا المتعة بأصواتهم .

-5- استعمال اللغة أحيانًا لإخفاء أفكار المتكلم لا لإظهارها – كما هو الأصل- وقد يكون ذلك لأغراض محمودة ومقبولة كأن يقصد المتكلم تلخيص نفسه من خطر وهلاك بطريقة مشروعة وهو ما يسمى في الشريعة بـ " التعريض " ، وكما يفعل السياسيون في التلاعب بالألفاظ و العبارات لتحقيق أغراض غير التي يقصدها السائل ويريدها السامع ، وفي علم البيان في البلاغة باب كهذا يسمى " تجاهل العارف " ويُسمى أيضا " أسلوب الحكيم " . وقد يكون إخفاء الأفكار كذبًا وتحايلاً وخداعًا كما في لغة اللصوص و المحتالين الذين يخدعون الناس للاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم .

وبناء على الحالات السابقة يتبين أننا لا نستعمل اللغة لصوغ عبارات إخبارية تواصلية فحسب ، بل نستعملها أيضا في مواقف كلامية نؤثر بها على الآخرين حُبًا وخداعًا وتحذيرًا كما نستعملها في تزجية الوقت وليس نقلُ الأفكار في ذلك كله هدفًا أساسيا .

وعليه فقد صنّف اللغويون الوظائف الأساسية للغة عدة تصنيفات يمكن اختصارها في فرعين اثنين هما :

- الوظيفة التعاملية : التي تتمثل في نقل المعلومات و التواصل .
- الوظيفة التفاعلية : التي تتمثل في إقامة العلاقات الاجتماعية وترسيخها .

إلا أن الوظيفة الأولى وهي الأساس .

4- ارتباط اللغة بالمجتمع :

يشير العنصر الثالث في تعريف ابن جنّي للغة إلى " الطابع الاجتماعي للغة " حين قال " كل قوم" و المقصود بذلك ارتباط اللغة بالمجتمع ، ويقترب ابن خلدون في تعريفه للغة [4] من تعريف ابن جني غير أنه يستخدم كلمة " أمة " بدل " قوم " وهما كلمتان ترادفان كلمة "مجتمع" أو " الجماعة اللغوية " بالمفهوم الحديث .

[4] - يعرف ابن خلدون اللغة بأنها :«عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشئ عن القصد لإفادة الكلام ، وهي في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » (المقدمة ، ص 514 ، ط دار الشعب)

وما فطن له ابنُ جني وغيره من علماء المسلمين يتفق مع ما قرره المحدثون من علماء اللغة مثل فندريس Vendryes الذي قال : «.. في أحضان المجتمع تكوّنت اللغة ووُجدت يوم أحسَّ الناس بالحاجة إلى التفاهم فيما بينهم .. فاللغة هي الواقع الاجتماعي بمعناه الأوفى ، تنْتُج من الاحتكاك الاجتماعي وصارت واحدة من أقوى العُرى التي تربط الجماعات وقد أدت بنشوئها إلى وجود احتشاد اجتماعي .» وفي عبارة أخرى: " واحدة من أقوى العرى التي تربط الجماعات " دليل على أن المجتمع الذي لا يهتم بلغته أو له لغاتٌ مختلفة لهو مجتمع متفكك ضعيف .

فاللغة إذن لا تنفصل عن المجتمع ، لأن العلاقة بينهما علاقة جدلية فلا وجود لها من دونه ، ولا وجود له من دونها ، لذلك فإن إدراكنا للغة لا يتم من خلال ظواهرها فحسب ، وإنما من خلال دراسة المجتمع الذي نشأت فيه ، كما أنّ معرفتنا لمجتمع ما بِكُلِّ بُنَاه تبقى ناقصةً إن لم نقل مشوهةً ، ما لم تستند إلى اللغة التي تشكل أهمَّ أركانه .

ولذلك يقول أحد الدارسين عن اللغة هي : «مرآة الشعب ، ومستودعُ تُراثه وديوان أَدبِه وسجلُّ مطامحه وأحلامه ، ومفتاحُ أفكاره وعواطفه ، وهي فوق هذا وذاك ، رمزُ كيانه الروحي ، وعنوان وحْدتِه وتقدّمِه ، وخزانةُ عاداته وتقاليده ». [5]

ويتجلّى هذا الترابط بين اللغة و المجتمع في مظاهر لا يمكن حصرها ولكننا نذكر أمثلة منها:[6]

- *اللغة تكتسب من المجتمع وليست غريزة :*

فالإنسان يستطيع أن يأكل ويشرب ويمشي بمعزل عن المجتمع الإنساني لأن هذه الأفعال غريزية ولكنه لن يتكلم بالرغم من أنه يملك جهاز النطق لأن هذا النوع من النشاط مكتسب ويرتبط بوجود الإنسان في جماعة ، والدليل على ذلك أن هذا النشاط اللغوي يتغيّر بانتقال الإنسان من بيئة لغوية إلى أخرى ولكن سلوكه في السير والأكل والشرب لا يتغيّر ، فالإنسان في اليابان و الجزائر وأمريكا يسير بنفس الطريقة ولكنه في كل بلد يتكلم بطريقة مختلفة .

- *تتسع اللغة برقي حضارة المجتمع :*

فكلما كانت الحضارة راقية كثرت مفردات لغتها للتعبير عن مستحدثات تلك الحضارة حتى تنتقل إلى مجتمعات أخرى ، وأوضح مثال على ذلك المفردات العربية التي دخلت إلى اللغات أوروبية –

[5] - فصول في علوم اللغة ص15.

[6] - ينظرُ: التعريب بين المبدأ و التطبيق لأحمد بن نعمان ، و اللغة والمجتمع لعلى وافي ص ص 11-23 و أصول تراثية في اللسانيات الحديثة لكريم زكي حسام الدين .

قديما– أيام ازدهار الحضارة الإسلامية العربية ، وكذا المفردات الغربية التي دخلت إلى اللغة العربية ولا سيما لهجاتها العامية في العصر الحديث نتيجة تطور حضارة المجتمعات الغربية .

- *انقراض الكلمات في الاستعمال اليومي باختفاء مسماها في الحياة الاجتماعية :*

فعلى سبيل المثال فإن الكثير من المفردات المرتبطة بالفقر و الجوع و الاستعمار التي كانت متداولة في ما قبل الستينيات في مجتمعنا لم يُعد لها وجود الآن .

كما أن بعض المفردات المتعلقة بالنخيل و الغيطان في منطقتنا يجهلها الشباب الذين لم يعيشوا الحياة التي كانت فيها النخلة هي كل شيء في حياة أهل المنطقة .

- *تطور مدلول الكلمة بتطور الحياة الاجتماعية :*

فكلمة القطار في العربية مثلا كانت تطلق في القديم على قطيع الإبل أو الغنم ، وكلمة البريد كانت تطلق على الدابة التي تُحملُ عليها الرسائل ، وكذلك السيارة والهاتف والعديد من الكلمات والألفاظ التي تغيّرت مدلولاتها بتغير الحياة الاجتماعية .

- *تأثر اللغة ببيئة المجتمع وقِيمه وتقاليده :*

- ففي البيئة البدوية لم يجد الشاعر في مدحه للأمير أحسن من قوله : أنت كالكلب في حِفاظِك للعهـ ** دِ وكالتيس قِراع الخطوبِ.

ولكنَّ قريحته ، بعد أن هذبتها حضارة بغداد ، استطاعت أن تجود بمثل قوله :

عيونُ المَهاَ بين الرصافَةِ والجسر ** جَلَبْنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري

والفرق بين تأثير البيئتين (البدوية والحضرية) واضح في البيتين.

- وفي تقاليد المجتمعات التي لا تهتم كثيراً بدرجات القرابة الأسرية لا تهتم لغتها كذلك بالتفريق بين درجة القرابة التي تربط الفرد بكل من أسرة أبيه وأسرة أمه ولا تفصّل فيها . حيث نجد ، مثلا في الفرنسية (وكذا في الإنجليزية) يسمى كل من الخال و العم بنفس الاسم (Oncle) والخالة و العمة كذلك (Tante) وابن الخال وابن العم أيضًا (Cousin) .

- وإذا كان في المجتمع نظام الطبقات فإن اللغة تُوجِد له مفردات تناسبه ، مثل لقب " السيد " في بداية ظهوره ، كما أن الصراع في اللغة الفرنسية بين الضميرين "Tu" (أنت) و "vous " (أنتم) في مخاطبة الفرد يمثل أصدق تمثيل مراحل الصراع بين روح المساواة ونظام الطبقات في الشعب الفرنسي ، ثم انتقل إلى لغات أخرى .. إلى أن صار كل ذلك الآن يقال لمجرد الاحترام و التقدير فحسب .

- وفي مجال القيم الأخلاقية وما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شؤونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض فيبعث كذلك صداه في لغتهم ألفاظها وتراكيبها .

فاللغة اللاتينية لا تستحي أن تُعبّر عن العورات والأمور المستهجنة و الأعمال الواجب سترها بعبارات مكشوفة ، ولا أن تسميها بأسمائها الصريحة ، على حين أن اللغة العربية بعد الإسلام تتلمس أحسن الحيل وأدناها إلى الحشمة والأدب في التعبير عن هذه الشؤون ، فتلجأ إلى المجاز في اللفظ وتستبدل الكناية بصريح القول مثل : القُبلُ، الدُبُر، قارب النساء ، لمس امرأته ، قضى حاجته ...الخ

ولقد كان لها بهذا الصدد في ألفاظ القرآن الكريم وعباراته إسوة حسنة ، مثل :«لامستم النساء» «فاعتزلوا النساء» وما إلى ذلك من كريم العبارات ونبيل الألفاظ التي تعكس قيم النبل والطهارة في المجتمع .

- **خاتمة :**

بهذا نكون قد فصّلنا في العناصر المستخرجة من تعريف اللغة لابن جني ما عدا العنصر الأخير الذي يوزع على جوانب أخرى في حياة الإنسان ، وأهم ما جاء في ذلك هو أن اللغة أصوات و إشارات أخرى يستعملها الإنسان في وظيفته أساسية هي التواصل مع أخيه الإنسان وفي وظائف فرعية أخرى تفاعلية ولا يمكن أن تكون اللغة خارج المجتمع الإنساني فهي جزء لا يتجزأ منه تنشأ فيه وتتأثر به كالكائن الحي .

لغة الطفل

محاضرة .. في مقياس اللغة والمجتمع.

الأستاذ : د. علي حلواجي .

العناصر :

- مقدمة.

أولاً : مرحلة ما قبل اللغة .

ثانيا : مرحلة الكلام الحقيقي وفهم اللغة .

ثالثا : العوامل المؤثرة في النمو اللغوي وتعلم الكلام .

- **المقدمة** :

للغة نشأتان ، الأولى هي نشأتها لدى الإنسان الأول (وقد تناولناها كعنصر في المحاضرة الأولى) والثانية هي نشأتها لدى كل إنسان وهو طفل وهي موضوع هذه المحاضرة .

يقول المتخصصون في هذا المجال إن اكتساب الطفل للغة يتم بمراحل زمنية تبدأ المرحلة الأولى بالتصويت (الصراخ) ثم في المرحلة الثانية بالمناغاة ، ثم بالكلمة و الكلمتين إلى آخره ..

ولكن قبل التفصيل في هذه المراحل لابد من الإشارة إلى أنه من المؤكد أن نمو اللغة عند الطفل مرهون ومرتبط بأمرين اثنين هما كالآتي :

1- **اكتمال أجهزة النطق** : وأجهزة النطق قسمان قسم ظاهر وقسم غير ظاهر .

أ- **القسم الظاهر** : وهي اللسان والحنجرة وجهاز التنفس.

ويتميز الإنسان عن الحيوان بالحنجرة التي تكون هابطة إلى الأسفل الحلق ، فعندما يولد الطفل تكون الحنجرة مرتفعة للأعلى بشكل يكاد تجعلها تلتحم بالمجرى الأنفي لكي تُرغمه على التنفس من خلال الأنف ، مما يسهل عليه عضويًا أن يرضع ويتنفس في وقت واحد ، ثم تبدأ الحنجرة في الهبوط لأسفل بعد ثلاثة أشهر إلى مكان أعمق في الحلق ، مما يسمح بوجود فراغ خلف اللسان يُتيح له حرية الحركة للأمام و الخلف ، وهذا مالا نجده عند الحيوانات الثديية مثل القرد الذي

ارتفعت حنجرته لأعلى فعجز عن النطق ، عكس الإنسان الذي تحولت حنجرته إلى آلة تصويتية قادرة على إنتاج أصوات اللغة المختلفة . فسبحان الخالق الذي « خلق الإنسان علّمه البَيَان».

ب- **القسم غير الظاهر :** وأهمه الدماغ الذي يتكون من منطقتين : إحداهما تسمى منطقة " بروكا " (على اسم الجراح الفرنسي Paul Broca الذي اكتشفها ، ت1880) وهي مسؤولة عن انتاج الكلام ، وتبلغ مرحلة التمييز العضوي بعد سبعة عشرَ شهرًا من الولادة ، والأخرى منطقة " فيرْنيك " (على اسم الطبيب الألماني الذي اكتشفها Carl Wernicke ، ت 1905) وهي مسؤولة عن استقبال الكلام وفهمه واستيعابه ، تنضج بعد أحد عشر شهرًا ، بمعنى أن الطفل يبدأ في فهم الكلام قبل أن يبدأ في انتاجه بشكل سليم .

فهذه المناطق تحتوي على خلايا عصبية توجد منذ تكوين الطفل ، وتستمر في النمو حتى تبلغ مرحلة الكفاءة للتنظيم و التدقيق و الإتقان حتى إن الطفل بين الثالثة و الرابعة من العمر يصبح قادرًا على الكلام بوضوح ويمكن أن يفهمه المحيطون به .

2-تدريب الجوارح على النطق :

وذلك عند اكتمال نضجها عن طريق التعلم من خلال المحيط الذي يعيش فيه الطفل ، وأهم عنصر فيه هو " الأم " الأكثر احتكاكًا بالطفل (في الحالات العادية) ، فالتجارب تدل على أن تدريب الأطفال على التكلم مرتبط بالظروف و المحيط الذي يعيشون فيهما ، فالفروق والاختلافات التي تظهر عند الكبر في القدرة على الكلام ترجع إلى اختلاف المحيط والظروف اللذين عاش فيهما كل فرد .

والكلام في هذين الأمرين (أجهزة النطق وتدريبها) يفسر نظرية أحد علماء اللغة وهو "تشومسكي" التي مفادها : أن الإنسان مزوّد فطريا بجهاز استعداد للقدرة على التكلّم واستعمال اللغة يشبه جهاز التسجيل ويتم تدريبه وتوظيفه من خلال المحيط ، وهذا ما يجعل الإنسان يمكنه أن يتعلّم أيّة لغة يجدها في المحيط الذي ينشأ فيه ، فاللغة أمر مكتسب ولكن بواسطة أجهزة فطرية .

وبعد هذه المقدمة نأتي إلى تفصيل المراحل الأساسية لتطور اكتساب اللغة الأم (أي الأولى) لدى الطفل (الكلام الشفوي) :

أولا : مرحلة ما قبل اللغة : Prelinguistique

وهي مرحلة تمهيد واستعداد وتتمثل هذه المرحلة في ثلاثة أطوار : 1- طور الصراخ. 2- طور المناغاة. 3- طور التقليد و المحاكاة.

1- طور الصراخ : عند الصرخة الأولى التي يطلقها الطفل عند الولادة التي تفسّر علميًّا بأنها ناتجة عن إحساس تعرض الجسم وخاصة الجهاز التنفسي للهواء، وهي تدل على أن الوليد برز إلى الوجود مزودًا بجهاز للتنفس وحنجرة وهما الضروريان لنمو مَلَكة التكلّم وعلى هذا فإن الصراخ هو نقطة البداية في نشوء اللغة ويظل الصراخ في هذه المرحلة عبارة عن مظهر عفوي من مظاهر الهيجان يمكن أن يعبّر عن الانفعالات الانعكاسية الناتجة عن الإحساس بالجوع أو الألم ، وهو أيضًا مظهر من مظاهر رحمة الله بهذا المخلوق الضعيف حتى يهتم به من هم حوله .

2- **طور المناغاة** babillage .

وهو من السن " أربعة أو ستة أشهر إلى اثني عَشَر شهرًا. ينتقل الطفل فيه من الصراخ إلى المناغاة ؛ والمناغاة هي الصوت الممتد الذي يطلقه الطفل في حالة الارتخاء و الارتياح .. وكأنه يُغنّي .. فبينما كان الصوت الأول (الصراخ) فعلا منعكسا لا إراديا فإن المناغاة تقوم على التلفظ الإداري لبعض المقاطع الصوتية (وهذا يدل على تطور لغوي) ويتخذ الطفل هذه المقاطع الصوتية غاية في حد ذاتها لا ليعبر بها عن شيء وإنما يكررها وكأنّه يلهو بترددها . والذي يدخل الطفل في المناغاة هو ذلك الاتصال الصوتي و السمعي فهذا الاتصال بين حاسة السمع وحاسة الصوت واضح إلى درجة نجد فيها الوليد الأصم (الأطرش) يصرخ ولا يناغي أبدًا أو سرعان ما يفقد المناغاة لعدم وجود تلك الدائرة بين السمع والصوت (وهذه ملاحظة مهمة للأبوين في المراقبة الصحية لطفلهما) ولا يكاد الطفل يبلغ الشهرين حتى يُبدي شيئا من الاهتمام كلما سمع صوت إنسان ، ومن مظاهر ذلك أنه قد يتوقف عن المناغاة أو يلتفت إلى ناحية مجيء الصوت .

3- طور المحاكاة أو التقليد :

بعد مرحلة " المناغاة " يحاول الطفل تقليد الصيحات التي يسمعها و الحقيقة أن الطفل يخترع كلمات من صنعه من جراء مرور الهواء الخارج من الرئتين بالأحبال الصوتية يتوصل من خلالها إلى عملية التخاطب ومن الملاحظ فإن الأطوار اللغوية هي في الواقع متداخلة فيما بينها ولا يمكن تحديد أيّ منها بدقة لفترة زمنية معينة ولذلك فإن هناك من يقول بأن طور المحاكاة يبدأ بعد الشهر التاسع ويستمر حتى السن المدرسية ، مع أن هناك فروقًا فردية بين الأطفال في القدرة على المحاكاة ونطق الكلمة أولى ، لعوامل متعددة كالذكاء و الجنس وفرص الكلام المتاحة للطفل

ووجود أطفال آخرين معه وثراء البيئة الاجتماعية و الثقافية إلا أن ما يجب التأكيد عليه هو أن الطفل لا يكاد يبلغ السنة حتى تظهر على سلوكه اللفظي بوادر التقليد فيصبح قادرًا على إعادة لفظةٍ التقطها من الكبار عن طريق سمعه .

وفي حدود السنة الثانية يردد الكلمات التي التقطها وكأنه يريد أن يرسخها في ذهنه وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تعلم الأصوات اللغوية يبدأ حين تتكون لدى الطفل المنعكسات الدائرية (السمع والتلفظ) لأنه في هذه المرحلة يستطيع تعلم أسماء الأشياء ثم ينتقل إلى المرحلة الثانية وهي التلفظ باسم الشيء مقترنا بالشيء ذاته ثم نعلم الطفل تقليد الاسم المتلفظ به وأخيرًا دفع الطفل إلى نطق اسم الشيء عند رؤيته له . وهذه العملية قد نقوم بها للترويح دون قصد ولكنها في حقيقة الأمر مهمة في التربية .

ثانيا: مرحلة الكلام الحقيقي وفهم اللغة : Stade linguistique

وهي المرحلة التي يبدأ فيها الطفل بفهم مدلولات ومعاني الألفاظ ويظهر ذلك في الأشهر الأولى من السنة الثانية فتتضح المعاني أكثر مع ظهور عناصر الاتصال الأولى التي تُنشيء الجلمة ، وتتكون هذه المرحلة من ثلاثة أطوار متباينة ومتزامنة مع سن الطفل :

1- **أحادي التعبير** Holophrastique : من ثمانية عشر 18 شهرًا إلى أربعة وعشرين 24 يتلفظ الطفل في هذه الفترة بكلمة معزولة وعادة ما يكون الأولياء وراء تلقين هذه الألفاظ الأولى مثل التعبير عن لعبة فنقول للسيارة (تيتا) وللدمية (توتو) التعبير عن الذهاب للفراش (ننّي) (وهذه فترة لغة "هم بُبّا ننّي " عندنا في منطقتنا قديما) وهي الفترة التي تنطق فيها بالحروف الشفوية السهلة مثل (بابا) (ماما) أو دادا.. وهي كلها فونيمات Phonèmes متكونة من مقطعين ساكنين..

2- **نحوية** Syntaxe: من السنة الثانية إلى السنة الخامسة في هذه المرحلة يكون الطفل قد تعلم نحو اللغة ليس بالمعنى العلمي الأكاديمي ولكن بمعنى أنه أصبح يكوّن جملا تقريبا كاملة من خلال تحليله للجمل التي يسمعها والنسج على منوالها وليس بتقليد حرفي وإنما بإتباع القواعد وتكرارها .

3- **المرحلة المتقدمة** : le stade avance من السنة الخامسة و أكثر :

في هذه المرحلة يكتسب الطفل علاقات ودلالات الكلام الدقيق مثل صيغة المبني للمجهول La forme Passive (عوض كتبت – أو كتب فلان / اتكتب..) وبالتالي يصبح الطفل يطبق التغيرات النحوية على كلامه لأنه أصبح يدرك أنه ليس كل مستمع يفهم ما يقصده .

ومن الملاحظات الهامة في هذه المرحلة ظهور بعض العيوب في النطق و التي تعتبر مؤقتة وطبيعية ولو بعد أربع سنوات ، فإذا ما توافرت الشروط البيئية و التربوية المناسبة تختفي هذه العيوب في الكلام الطفولي مثل الجمل الناقصة والإبدال (حرف قبل حرف) واللثغة (النطق غير السليم لبعض الحروف) وغيرها .

ومن هنا تبرز أهمية مراقبة النطق عند الطفل في المراحل الأولى من الطفولة لتفادي عيوب الكلام منذ البداية وإن لم يتخلص الطفل منها بين الرابعة والسادسة من عمره ، أصبح شاذًا بالنسبة لمعايير النطق الصحيحة ووجب عرضه على اختصاصي نفسي لأن مجال الاهتمام بهذا الجانب هو علم النفس وما كلامنا إلا نقل عن المختصين فيه .

ثالثا: العوامل المؤثرة في النمو اللغوي وتعلّم التكلّم :

1- **الجنس** : (ذكر أو أنثى) فقد لوحظ أن الإناث (كما يقول المختصون) يتفوّقن على الذكور في كل جوانب اللغة كبداية الكلام وعدد المفردات اللغوية فيتكلمن بشكل أسرع وهن أكثر تساؤلاً وأكثر إبانة وأحسن نطقا، والسبب العلمي لهذا التفاوت غير مطروح حتى الآن.

2- **الذكاء** : تعتبر اللغة مظهرًا من مظاهر نمو القدرة العقلية العامة والطفل الذكي يتكلم مبكرًا عن الطفل الأقل ذكاءً.

3- **المحيط الاجتماعي** : يعتبر المحيط الاجتماعي بسماته الثقافية و الاقتصادية المميزة من أهم العوامل المؤثرة على تعلم النطق والكلام لدى الطفل ، حيث إن النمو اللغوي يتأثر بالخبرات وتنوعها واختلاط الطفل بالراشدين من حوله أثناء مراحل نمو السلوك اللغوي وهنا يشير أهل الاختصاص أن الطفل الذي تربّى في عائلة كثيرة السفر أو أمه في غياب مستمر عنه فإنه يفقد – في الغالب– موهبته في الكلام الذي اكتسبه حديثا ، كما لاحظوا أن الأطفال من الطبقات العليا أثرى لغويا من الطبقات الدنيا وذلك لتوفر الإمكانات وإتاحة الفرص واهتمام الأولياء المتميّز لأنهم مثقفون .

4- **العوامل الجسمية** : ومنها سلامة جهاز الكلام واضطرابه وكذلك كفاءة الحواس ولاسيما السمع (وهنا تكون المراقبة الصحية واجبة) .

5- **وسائل الإعلام :** ولا ننسى دور وسائل الإعلام من إذاعة وتلفاز وهواتف ذكية وحواسيب وغيرها فهي بمثابة المثير الذي يعطي تنبيها لغويا أكثر وأفضل يساعد على النمو اللغوي السليم سواء عن قصد أوعن غير قصد ، ولذلك نجد بعض الأطفال يتكلمون جملا عربية فصحى أحيانًا غير متداولة في محيطهم ولكنهم نقلوها عن الرسوم المتحركة.

إلا أنه من الملاحظ (كما يقول المختصون) أن تعدد اللغات في المراحل الأولى لاكتساب اللغة يشكل عبئا على الطفل في اكتسابه لها ، لذا يجب أن يركز له على تعلم لغة واحدة في البداية .

- **الوظائف العليا للدماغ :** الذاكرة ، الإدراك ، الدافعية ، وتحقيق الذات .
- **خاتمة :** وتتلخص كيفية اكتساب اللغة الأم لدى الانسان في ما يأتي :

-1- الطفل مؤهل طبيعيا بملكة تمكنه من اكتساب اللغة .

-2- في عامة الأول يتمكن من التعرف على الصوت اللغوي للغته Phonèmes كما يستطيع فهم العديد من الكلمات .

-3- الكلمات التي يستطيع الطفل انتاجها خلال عامه الأول من 05 إلى 10 كلمات .

-4- إن اكتساب التراكيب النحوية Morphosyntaxe يمكن ملاحظته في الشهر الثامن عشر ، ويتمكّن الطفل في حدود السنة الثالثة تقريبا من انتاج الجمل النحوية المفهومة .

-5- نستطيع ملاحظة المظاهر البرغماتية للغة (استعمالها للكبار) التي اكتسبها في حدود السن السادسة وذلك من خلال مظاهر ديناميكية الأسرة الجماعة الشارع المدرسة النادي ، المسجد ..الخ

وتجدر الإشارة أن واجب المراقبة التربوية يستدعى الانتباه إلى كل ما يخالف عمومًا هذه القواعد .

اللغة والهوية

محاضرة .. في مقياس اللغة و المجتمع .

الأستاذ : د. علي حلواجي .

العناصر :

1-مفهوم الهوية . (القومية) .
2-النظريات المطروحة في العناصر الأساسية للهوية ومكانة اللغة في كل منها .
3-أقوال ومواقف حول اللغة والهوية .

أولا: مفهوم الهوية (القومية):

الهوية في اللغة من ناحية صرفية هي مصدر صناعي من لفظ "هو" لأن معناها التعريف بالشيء المعبر عنه بالضمير "هو" ، وكأنّ ذلك جواب عن سؤال : ما هو ؟ وهوية الشيء حقيقته وكنهه.

أما في المصطلح «الهوية هي مجمل السمات التي تميز شيئا عن غيره أو شخصًا عن غيره أو مجموعة عن غيرها كلٌّ منها يحمل عدّة عناصر في هويته ، عناصر الهوية هي شيء متحرك ديناميكي يمكن أن يبرز أحدها أو بعضها في مرحلة معينة وبعضها في مرحلة أخرى ، الهوية الشخصية تعرف شخصًا بشكله واسمه وصفاته وجنسيته وعمره وتاريخ ميلاده » (ويكيبيديا) .

وإذا كانت الهوية في هذا التعريف هي السمات التي تميز شيئًا أو شخصًا أو مجموعة ، فالذي يعنينا هنا ليس الشيء ولا الشخص و إنما هو "المجموعة" والتي نعني بها هنا القوم أو الأمة (كما ورد في تعريف كل من ابن جني وابن خلدون للغة)[1] ولذلك فموضوعنا يتعلق بالعناصر التي تشكل السمات والشروط الأساسية للانتماء لنفس الأمة أو القوم مع الاكتفاء باستعمال مصطلح المصدر من "القوم" (أي القومية) مادام معنى القوم والأمة واحدا و سنرى كيف أن اللغة لها مكانة متميزة بين عناصر الهوية هذه في كل النظريات المطروحة في شأنها .

[1] - انظر المحاضرة رقم 1 ، علاقة اللغة بالمجتمع.

ثانيا: النظريات المطروحة:

طرح العلماء والمفكرون عدة نظريات حول العناصر الأساسية التي تولّد الشعور القومي لدى الأفراد وتجعلهم أمة واحدة وهو ما سميناه "القومية" ومن أهمها:

1- **النظرية اللغوية** : ظهرت هذه النظرية في ألمانيا على أيدي دعاة وفلاسفة ألمان لحاجة هذا الجنس إليها لتكوين أمة ولأنهم توزَّعوا في عشرات البلدان ولذلك أصبحت تُعرفُ بالنظرية الألمانية .

وخلاصة هذه النظرية تفيدُ أنَّ كل الذين يتكلمون بلغة واحدة يُكوّنون كلاً واحدًا ربطته الطبيعة بروابط متينة و إن كانت غير مرئية بالعيون كما أن الحدود الأساسية التي تستحق التسمية باسم الطبيعية هي الحدود الداخلية (النفسية) التي تُرسمها اللغات ، فالذين يتكلمون اللغة الواحدة يرتبط بعضهم ببعض بروابط عديدة ، تُكوّن منهم كلاً لا يقبل الانفصام ، إلا قصْرًا كما وقع للألمانيين أو الكوريين أو اليمنيين ، الفيتناميين ، فالشعوب التي تتكلم لغة واحدة (لغة أمًّا) تكون ذات قلب واحد وروح واحٍ واحدة مشتركة ولذلك تكون أمة مشتركة يتُوق أفرادها إلى العيش تحت لواء دولة واحدة وقد يبقى هذا التوقان خفياً ولا يظهر إلى العلن إذا حجزته العقبات السياسية ، ولكنه يبقى دائما متأجّجاً في أعماق الأفراد ، كالنار تحت الرماد ، لا تلبث أن تشتعل بمجرد أن تذروَ الرياح القومية ذلك الرماد .

ومن الذين يتزعمون هذه النظرية الألمان الفيلسوف " فيخته " الذي تظهر مبادئ فلسفته في الخُطب السياسية التي كان يوجهها إلى أفراد الشعب الألماني حيثما كانت الرقعة الأرضية التي يوجد بها ، والدولة السياسية التي ينتمي إليها بجنسيته ، حيث كان يستهل خطبه بقوله :

"وعندما أخاطبكم أنتم المجتمعين أمامي هنا يتوجَّهُ ذهني من ورائكم إلى جميع الذين يتكلمون اللغة الألمانية " ويصرح بأنه يخاطب جميع هؤلاء ، كما لو كانوا مجتمعين بجانب المستمعين الجالسين أمامه لأنه يعتبرهم جميعًا أبناء أمةٍ واحدة .

وهذا الفيلسوف الألماني الآخر "هارْدِرْ" الذي يقول في نفس المعنى المُدعم لهذه النظرية التي ترى أن اللغة هي الأساس في بقاء الأمة و الوطن : يقول : "..ومن ثمة فاللغة القومية تعتبر بمثابة الوعاء الذي تتشكل به وتُحفظ فيه ، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب ، إن لغة

الآباء و الأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر و التقاليد و التاريخ و الفلسفة و الدين ، فقلبُ الشعب ينبض في لغته، وروحُه تكمن في هذه اللغة "

ولقد تأكدت صحة هذه النظرية في التاريخ في عدة مواقع من العالم منها ألمانيا ذاتها التي يقول العلماء عنها " أن الألمان كانوا مجزئين إلى ما يقارب المائة من الدويلات المتطاحنة ، وبعد أن كان كل فرد في هذه الكائنات السياسية يحدّدُ وطنه بحدود الدويلات التي ينتسب إليها ، وبعد أن كان أفراد الشعب الألماني على هذه الدرجة من التمزق صاروا يشعرون بعد نُضج الوعي القومي لديهم بأنهم أبناء أمة واحدة وعملوا بما يُمليه عليهم هذا الإيمان بقوميتهم على تكوين دولة مُوحدة.."

وهناك أمثلة عديدة أخرى للدول والأمم التي وحدتها اللغة وجعلتها تعيش تحت راية واحدة منها: إيطاليا ، بولونيا ، واليونان ، وبلغاريا ، ورومانيا ، وألبانيا ، ويوغوسلافيا ، والمجر وتشيكوسلوفاكيا..

كما يدعم هذه النظرية أيضا انحلالُ كل من الإمبراطورية العثمانية و النمساوية هذا الانحلال الذي تم أو ساعد على إتمامه اختلاف لغات الشعوب التي كانت تابعة لهما فقد انفصلت عن كل منهما الشعوب المتكلمة بغير لغتها.

وبالنسبة للدولة العثمانية بالذات لو كان اهتمامها بلغة القرآن قويا كما يجب لما وُجد المبرر للانفصال عنها ، ولكان ذلك عاملاً قويًا لتمتين رابط العقيدة التي جمعت تلك البلدان.

ويدعم هذه النظرية أيضا أن النظريات الأخرى لم تستغن عند تطبيقها عن رابط اللغة المشتركة.

2-**النظرية الدينية** : وهي القائلة بأن وحدة الدين هي الأساس الأول للقومية وتكوين الأمة وهي التي على أساسها بنيت الدولة الإسلامية الأولى في عهد الخلافة الكبرى التي جمعت كل الأجناس الذين يتكلمون بما لا يُحصى من اللغات و اللهجات و التي كانت بها الأمة التي قال فيها : تعالى :"كنتم خير أمة أخرجت للناس" حيث تكوّن شعور واحد لدى المسلمين بأنهم إخوة في الدين ، لا فرق بين عربيهم وأعجميهم إلا بالتقوى كما جاء في الحديث الشريف المؤكد بقول الله تعالى : " إنما المؤمنون إخوة ". ولقد كانت هذه النظرية صائبة ونجحت نجاحاً كاملا حين طبقت الدين الإسلامي الصحيح الشامل الذي يعتبر اللغة التي نزل بها جزءًا منه حيث اتضح أن العلاقة بين العربية و الإسلام علاقة عضوية وبهذا

المفهوم اعتنق المسلمون الأوائل الإسلام واحتضنوا لغته " العربية " فتعرّبُوا وامتزجوا امتزاجًا كليا مع العرب أنفسهم ولكن عندما ضعف الدين ورقت العقيدة وبرزت الشعوبية " و تعنصر كلُ جنس بعرقه ولغته بدأ التشتت والتشرذم وبدأ تمزق أوصال الأمة الإسلامية .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن فصل اللغة العربية عن الدين الإسلامي يُضْعفهما معًا ويعودُ بالضرر على وحدة الأمة.

إذن فالنظرية الدينية بالنسبة للإسلام صحيحة ولكن بشرط اعتبار اللغة العربية جزءًا من الإسلام ، فتأسيس وبناء الأمة على أساس العقيدة أمرٌ واجبٌ ولكنه لا يتحقق على أرض الواقع ما لم يُدعم بوحدة اللغة والقاعدة الأصولية في الإسلام تقول : " ما لا يتم الواجبُ إلا به فهو واجب" بمعنى أن وحدة اللغة واجبة مادامت وحدة الأمة الواجبة لا تتم إلا بها.

ويدعم هذه الفكرة أن الأمة الإسلامية قائمة ولكن تماسكها بين الشعوب الناطقة بالعربية أقوى من تماسكها في أوساط الشعوب الأخرى المختلفة اللغة وللسبب نفسه فإن دولة باكستان التي بُنيت على أساس النظرية الدينية حين انفصلت عن الهند لكون الجزء المنفصل (باكستان) يدين شعبه بالإسلام بخلاف الجزء المتبقي (الهند) ، هذه الدولة (باكستان) تسعى جهود كبيرة فيها لتكون العربية فيها هي اللغة الأساسية ليكتمل بناؤها ويقوى. كما يدعم هذه الفكرة أيضا أن النظرية الدينية لا يمكن أن تستغنى عن اللغة في بناء الأمة أو الوطنية لأنه لا وطنية بدون لغة وطنية .

يدعمها كذلك واقع دولة "الكيان الصهيوني" في فلسطين المحتلة التي أنشئت على أسس دينية بحته ، وجد فيها السياسيون اليهود أقوى وسيلة لإقامة دعائم الأمة اليهودية ذات الدولة العبرية ، ولعل رغبة اليهود الروس الدائمة في الهجرة إلى إسرائيل ، تُعد من أقوى الحجج للدلالة على جوانب القوة في النظرية الدينية .

غير أن هذه النظرية ذاتها لم تستغن عن عُنصر اللغة وعناصر ثقافية أخرى.. ولذلك نجد الدولة العبرية تضع لغة التوراة في أعلى مراتب التقديس وتفرض تعلمها واستعمالها الرسمي الإجباري على كل يهودي حاصل على الجنسية الاسرائيلية . وقد ذهبت في تشددها على هذا الأمر إلى درجة تغيير أسماء اليهود المهاجرين (إلى إسرائيل) من أسماء عربية إلى أسماء عبرية ذات دلالة صهيونية وتوراتية .. ومن ذلك أيضا تغيير اسم العملة (الإسرائيلية) (الجنيه والليرة) بأسماء واردة في التوراة حسب زعمهم(عملتهم الأساسية هي الشيكل)،

ونلاحظ هنا أهمية الدين مع اللغة عندهم فمع تغيير التسمية باللغة العبرية هناك المحافظة على المعنى الديني للكملة أو الاسم .

نذكر هذا كله للدلالة على مدى تنبه اليهود لقوة العنصر اللغوي في تكوين وتقوية الشعور القومي و الوطني بعد تركيزهم في الأساس على الدين .

وتجدر الإشارة في نهاية هذا العنصر إلى التأكيد بأن حاجة عنصر الدين للغة في تكوين القومية والوطنية تأتي من باب أن لكل دين لغة ويرتبط بها ارتباطا وثيقا كما بينا سابقا ، وإلا فإن العقيدة الدينية أقوى تأثيرًا في النفوس من أي عنصر آخر في الترابط الاجتماعي ، بدليل أن اللغة وسيلة وليست عقيدة وأن العقيدة هي التي تفرض تعلم لغة الدين الذي تتبعه وليس العكس .

3-**النظرية الاقتصادية:** و مفادها أن وحدة الحياة الاقتصادية هي الأساس للقومية و الوطنية ، و قد نشأت هذه النظرية في أوائل القرن الماضي في روسيا على يد " استالين " غير أن هذه النظرية تؤكد في نفس الوقت على وجود أربعة عناصر متكاملة في تكوين الأمة و منها وحدة اللغة بالإضافة إلى وحدة الأرض و وحدة الثقافة و وحدة الحياة الاقتصادية .

و مما يؤكد أن استالين لم يكن يؤمن بأن المصلحة الاقتصادية وحدها كافية لتكوين الأمة ، أنه اهتم كثيرا بهذه المشكلة ، و لما اصطدم بالواقع الذي برهن له على أن الخصائص القومية كاللغة و الثقافة و التاريخ المشترك تبقى عاملا من عوامل التمييز القومي للجمهوريات السوفياتية ، رغم الاتحاد الفدرالي ، عمد إلى سياسة تنم عن عبقرية و حنكة سياسية كبيرة ، حيث كان يتظاهر باحترام اللغات ، و الخصائص القومية للجمهوريات ، و يعمل في الواقع على توطيد دعائم المركزية المطلقة في البلاد ، و فرض الطابع الروسي ، بإجبار سكان الإمبراطورية جميعا على تعلم اللغة الروسية ، و قد اتخذ من الحزب الوسيلة الفعالة لتحقيق هذا الهدف ، و تبين من ذلك أن اللغة، وما تحافظ عليه من ثقافة و تاريخ تبقى دائما من أقوى الدعائم لتكوين الأمة خصوصا في غياب العقيدة الدينية.

4-**نظرية مشيئة المعيشة المشتركة (أو التعايش)** : و هي كما يبدو لا تبتعد في مضمونها عن النظرية الاقتصادية ، إلا أنها أقل صراحة منها ، حيث لا تتعرض - عن قصد - للعناصر القومية الأخرى التي أقر بها استالين صراحة ، و التي تكوّن الشعور لدى الأفراد بالرغبة في العيش المشترك، و قد ظهرت هذه النظرية في فرنسا على يد " أرنست رنان" .

و لا يخفى القصد السياسي من هذه النظرية التي عرفت " بالنظرية الفرنسية " إذ هي تتفادى ذكر العناصر القومية الأساسية (كاللغة و الثقافة و التاريخ والدين) لتعارضها مع طموحات السياسة الفرنسية في تكوين إمبراطورية فرنسية تضم تحت شعار الأمة الفرنسية اشتاتا ، و ألوانا من الشعوب المتباينة و المختلفة ، لغة و ثقافة و تاريخا ، لتدونها في بوتقة الأمة الفرنسية ، و هي إذ تتظاهر بمشيئة المعيشة المشتركة لشعوب الإمبراطورية تعمل كل ما في وسعها ـ في نفس الوقت ـ على استئصال الخصائص القومية لتلك الشعوب التي احتوتها بالحديد و النار ، و لا نجد دليلا أقوى على ذلك مما فعلته مع الشعب الجزائري في هذا المجال، حيث حاربت الدين و اللغة العربية بلا هوادة لكونها أهم عناصر تكوين الأمة في حقيقة الأمر عند أصحاب النظرية نفسها .

و الخلاصة أن كل النظريات المطروحة حول العناصر الأساسية التي تولد الشعور القومي و الوطني و هي النظرية اللغوية ، و النظرية الدينية و النظرية الاقتصادية و نظرية التعايش ـ كلها لا تهمل اللغة و لا تستغن عنها كعنصر أساسي في تكوين الأمة و تماسك الوطن و إذا تجاهلتها فإن مآلها الفشل بما في ذلك النظرية الدينية ، فإذا لم تعتمد لغة الدين كلغة مشتركة بين أفراد الوطن و الأمة فإن دوره في التوحيد يضعف عما لو كان مدعما باللغة و لذلك فإن اعتبار اللغة العربية جزءا من الدين الإسلامي أمر مهم.

و الذي يهمنا في هذه الحصة في ذلك كلة هو " لا قومية ولا وطنية دون لغة قومية و وطنية مشتركة " فالمحافظة على اللغة هي في ذاتها محافظة على القومية و الوطنية .

ثالثاً: أقوال ومواقف حول اللغة والهوية :

نعرض جملة من الأقوال والتصريحات والمواقف لشخصيات عالمية تؤكد ما سبق ذكره من أن اللغة لابد منها للقومية وأنه لا قومية ولا وطنية دون لغة مشتركة .[2]

- كوريا حلّت مشكلة اللغة من أول يوم لاستقلالها بطريقة ثورية (لا إصلاحية) فقد نص أول مرسوم صدر في أول عدد للجريدة الرسمية لكوريا المستقلة على ما يلي : «يُمنع على الكوريين التحدث فيما بينهم باللغة اليابانية (لغة المستعمر السابق)»

[2] ـ هذه الأقوال مقتطفات من كتاب التعريب في الجزائر لعثمان سعدي ، ..

وما التقدم الذي حصل في كوريا في فترة زمنية غير بعيدة عن فترة استقلال الجزائر إلا باللغة الوطنية الكورية. وما يقال عن كوريا الشمالية يقال عن الجنوبية في سيادة اللغة الوطنية.

- في الفيتنام يقول الزعيم "هوشي منه" في وصاياه لشعبه:

"حافظوا على صفاء اللغة الفيتنامية كما تحافظون على صفاء أعينكم.. تجنبوا بعناد أن تستعملوا كلمة أجنبية في مكان بإمكانكم أن تستعملوا فيه كلمة فيتنامية".

- في الاتحاد السوفياتي، يقرر "لينين" الفيلسوف والزعيم الأممي الاشتراكي: "أن الاشتراكية هي رفع مستوى الطبقات الكادحة المسحوقة، ولا يمكن لهذا أن يتمّ إلاّ باللغة الوطنية"

وفي مقام آخر، رفض لينين مطالبة بعض رفاقه سنة 1917م استبدال الروسية الفُصحى (لغة العنصرية والرجعية كما يزعمون) بالدارجة (لغة الشعب) واصفا إياهم بالصبيانيين، وأسس محافظة ترأستها زوجته "كوبر سكايه" قامت بتطهير اللغة الروسية من الكلمات الفرنسية.

–وفي فرنسا حين قرر حزب جبهة التحرير الوطني (الجزائري الحاكم) في السبعينيات إدخال تعليم اللغة الوطنية (العربية) عن طريق (الوادية) إلى أبنائنا المغتربين بفرنسا ووافقت الحكومة الفرنسية، على أن تتكفل الحكومة الجزائرية بالإنفاق على تعليم لغتنا لأبناء عمالنا بالمدارس الفرنسية بمقدار ثلاث ساعات أسبوعيا، حينها عبر بعض الأطفال الفرنسيين في المدارس الفرنسية الابتدائية عن رغبتهم في تعلّم اللغة العربية مع زملائهم الجزائريين، فمنعهم مدراء هذه المدارس، فاشتكى أولياء أمور هؤلاء الأطفال الفرنسيين من هذا المنع ورفعت القضية إلى مجلس الوزراء فأكد هذا المنع مذكرا بالقرار التربوي الفرنسي الذي يمنع تعليم لغة غير الفرنسية للأطفال الفرنسيين في المرحلة الابتدائية من التعليم الفرنسي!!

– وفي فرنسا أيضا توجد "اللجنة العليا للغة الفرنسية التي أسسها الرئيس الأسبق جورج بومبيدو، وعندما جاء ميتران للحكم زاد في ميزانيتها وأسند رئاستها إلى صديق له عرف بحبّه للفرنسية وصلابته في الدفاع عنها وهو (ستيليو فرانجيس) الذي وصفته مجلة (le point) الفرنسية بأنه العاشق للغة الفرنسية . وأول ما فعله هذا الرئيس هو تعيين ممثل لهذه اللجنة في كل وزارة لكي تسهر عن طريق ممثليها على مراقبة سلامة استعمال اللغة الفرنسية، وضمان عدم تسرّب كلمات

أجنبية لها، وقد أصدرت بالفعل توجيهاتها إلى أجهزة الإعلام والمصالح المختصة بتطهير اللغة الفرنسية من الكلمات الانجليزية واستبدالها بكلمات وعبارات أصيلة مثل عبارة week end.

وتحت إشراف اللجنة العليا للفرنسية هذه أسست جمعية تُدعى (الجمعية العامة لمستعملي اللغة الفرنسية AGULF، وصفتها مجلة (le point) بالقوة الضاربة والراعدة في يد اللجنة العليا، ضد العدوان الخارجي أي العدوان اللغوي!!

وقد قامت هذه الجمعية بمقاضاة العديد من المؤسسات بسبب تشجيعها لاستعمال العبارات والكلمات الانجليزية في دائرة اختصاصها أو إنتاجها، ومن هذه المؤسسات شركة (سييته) لإنتاج نوع من السجائر أعطته اسما انجليزيا وهو "نيوز" ورفعت الدعوى وصدر الحكم ضد الشركة بتهمة اعتدائها على اللغة الفرنسية في عقر دارها بأن فضلت عليها لغة أجنبية، كما خسرت هذه الشركة ذاتها (سييته) قضية أخرى لأنها استعملت في الدعاية لسجائرها كلمة FILTER بالانجليزية عوض FILTRE بالفرنسية مع أن الفرق بسيط وهو ترتيب الحرفين ER و RE، فلهذه الدرجة يحافظ القوم على لغتهم لأنهم يؤمنون إيمانا قاطعا بأنه لا قومية ولا وطنية دون لغة قومية ووطنية كما جاء في ثنايا المحاضرة.

اللغة والدين

المحاضرة.. في مقياس اللغة والمجتمع.

للأستاذ: د. علي حلواجي.

العناصر:

- مقدمة.

1-فحوى الدين والدعوة إليه باللغة.

2-استعمال اللغة في ممارسة الدين.

3-تغيير الدين للدلالات واستحداث المصطلحات.

4-الدين عامل قوي في الحفاظ على اللغة.

5-الدين يفرض نفسه في اللغة اليومية للناس.

- خاتمة.

- **المقدمة:**

عند الكلام عن علاقة اللغة بالدين لسنا في حاجة لتعريف الدين، ولكننا نشير فقط إلى أننا نتكلم عن كل الأديان لا عن الإسلام وحده، كما نتكلم عن اللغة ككل لا عن اللغة العربية فقط، ولكن هذا لا يمنع من أن نضرب أمثلة عن علاقة العربية بالإسلام كما نضرب أمثلة من علاقة أديان ولغات أخرى.

إن الكلام عن الدين في إطار "اللغة والمجتمع" يأتي على اعتبار أن الدين نظام اجتماعي متغلغل في النفوس ومرتبط بقوة بالمجتمع ، وأنه ليس من السهل الفصل بين اللغة والدين، فالدين له علاقة وطيدة بكل النظم الاجتماعية كما يقول العلماء، ومن مظاهر علاقته باللغة تأثيرا وتأثرا ما سيأتي في العناصر اللاحقة:

1- **فحوى الدين والدعوة إليه باللغة:** فالدين هو مجموعة من المبادئ والقيم والمفاهيم والأحكام والشرائع التي تعبر عنها لغة من اللغات وما دام لابد من شرحها وتفصيلها حتى يفهمها الناس

ويُقبلوا على الدين ويعتنقوه فلا يمكن أن يتمّ ذلك إلا بواسطة اللغة، فدون لغة لا يمكن تبليغ الدين ونشره وكلما كانت اللغة أحسن وأبلغ كان نشر الدين أوسع وأعمق ولذلك قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿**وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا**﴾.

وبدافع نشر الدين تتطور اللغة ويزدهر أدبها ويقوى نشاطها ويكثر التأليف الأدبي والفكري والفلسفي المدافع عن الدين والداعي له والناشر والمفسر والموضّح، وكمثال على ذلك نجد أن الخطابة العربية كفن من الفنون الأدبية كان الدين الإسلامي عاملا قويا في تطويرها وازدهارها وذلك لحاجة الدعوة إليها ، حتى إن الإسلام فرض الخطبة مرة في الأسبوع على الأقل على المسلمين (في الجمعة) كما أن الشعر كان له دور عظيم في نشر الدعوة والدفاع عنها وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاعرٌ خاصٌ وهو حسّان بن ثابت رضي الله عنه وكان صلى الله عليه وسلم يشجعه في قول الشعر ويقول له: "اهجُهم وروح القدُس معك" رغم أن الهجاء منعَه الإسلام بين المسلمين لما فيه من ذمّ وشتم وإيذاء ولكنه كان ضرورة ضد الكفار في حالات المواجهة لأغراض نفسية وإعلامية ، وذلك كله يفرض استعمال اللغة.

2- استعمال اللغة في ممارسة الدين ذاته: فباللغة تُؤدّى الشعائر والعبادات والطقوس المختلفة في كل دين من الأديان ولا يمكن أن يتم ذلك إلا باللغة ومن أمثلة ذلك: أن الدخول إلى الإسلام – مثلا- لا يتم إلا إذا نطق الإنسان بالشهادتين. والاتصال بالله تعالى لا يتم إلا باللغة. وأداء الصلاة لا يتم إلا بالكلام الذي هو لغة. والدعاء والتضرع لا يتم إلا باللغة، وترتيل الكتاب المقدس هو لغة كذلك.. فكأننا نستطيع القول بأنه لا دين إلا باللغة.

3- تغيير الدلالات واستحداث المصطلحات: فاللغة بلا شك سابقة للدين في الوجود والاستعمال ولكن الدين عندما يأتي يُغّيرُ دلالات ومعاني بعض الألفاظ ليصير لها مفهوم آخر كما يُحدث مصطلحات جديدة لم تكن مستعملة أصلا من قبل أو كانت مستعملة بمعنى آخر ومن أمثلة ذلك في العربية هناك ألفاظ كانت في أصلها في اللغة تعني معاني أخرى غير التي نعرفُها بها الآن فهذه المعاني قد أضافها لها الدين الإسلامي ، ومن هذه الألفاظ: الإيمان التي تعني التصديق/ الكفر (التغطية)/ الصلاة (الدعاء)/ الجهاد (بذل الجهد)/النفاق (التي جاءت من نافقاء اليربوع) البعث، الصراط، الحساب، العقاب، وغيرها، والقائمة طويلة.. مما يدل على أنه من تأثير الدين في اللغة تغيير دلالات الألفاظ وإيجاد مصطلحات جديدة .

4- الدين عامل قوي في الحفاظ على اللغة: فالدين يطور اللغة كما ذكرنا بإثرائها وزيادة الانتاج فيها، وبالإضافة إلى ذلك فهو يحافظ عليها طال الزمان أو قصُر مادام هذا الدين موجودا في المجتمع وهذا أمر منطقي لأن شعائر هذا الدين وعباداته لا تؤدى إلا بلغته، والأمثلة كثيرة التي تؤكد هذه الظاهرة على مختلف الأديان واللغات التي نزلت ونبدأ هذه الأمثلة باللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، فلو لم يكن القرآن هو حافظ اللغة العربية لتغيّرت كثيرا عما هي عليه الآن.

وكذلك اللغة العبرية (لغة اليهود) التي زالت من التداول وصار لا يتكلم بها أحد في الحياة اليومية للناس لمدة تزيد عن عشرين قرنا، ولكنها بقيت محفوظة كلغة خاصة بفضل علاقتها بأسفار التوراة (الكتاب المقدس لليهود) الذي ظل اليهود يحافظون عليه حيثما وجدوا في العالم حينما كانوا متشتتين إلى أن كوّنوا وطنا قوميّا تجمعوا فيه في منتصف القرن الماضي (1948) في فلسطين، فوجدوا وسيلة اتصال، قائمة بين اليهود _على ضعفها_ فعملوا على إحيائها وتقويتها وإثرائها، بالمفردات العلمية لتساير العصر، وليجعلوا منها دعائم القومية اليهودية، وإحدى وسائل الاتصال بين أشتات اليهود من سلالات البشر المختلفة.

ويمكن القول _كما يقول العلماء_ بأن اللغة العبرية لو لم تكن لغة الدين اليهودي لزالت وانمحت من الوجود إلى الأبد، ولعلها هي اللغة الوحيدة التي عادت إلى وضعها الصحي بعد جمود دام أكثر من 20 قرنا وكذلك الشأن بالنسبة للغة القبطية في مصر، فعلى الرغم من زوالها تماما من التداول والتكلم بها منذ عدة قرون فإننا نجدها باقية في الكنائس القبطية، ومستعملة في الطقوس الكنائسية والأدعية والتراتيل.

وهذه الامثلة كافية لتدل على أن الدين يحافظ على اللغة، فلو فرضنا أن التوراة أو الانجيل أو القرآن أنزل باللغة السامية الأولى لوجدنا هذه اللغة مستعملة إلى يومنا هذا ولكن هذه اللغة غابت تماما لعدم وجود ديانة تستعملها في شعائرها أو كتاب منزل بها.

5- الدين يفرض نفسه في اللغة اليومية للناس: ويظهر ذلك واضحا في المجتمع المسلم في غالبه حيث إن الناس يتلفظون بألفاظ وعبارات ذات معنى ديني من الإسلام في كلامهم مع بعضهم يوميا حتما عنهم ودون شعور منهم حتى ولو كانوا غير متديّنين أو غير مسلمين أصلا، ذلك لأن الدين يكوّن في المجتمع عادات وتقاليد في الأعمال وفي الكلام لا يجد الفرد مفرّا من ممارستها

وبحكم احتكاك أفراد المجتمع مع بعضهم نجد أن هذه التقاليد تنتقل بينهم ويمارسها كل واحد منهم دون شعور حتى ولو لم يكن مؤمنا بمصدرها الذي هو الدين وذلك بدافع التعامل مع الآخر حتى يفهمه ويتجاوب معه، ومن أمثلة الألفاظ والعبارات الدينية التي تجري على الألسنة بهذا الشكل: لفظ الجلالة "الله" والقسم به "والله العظيم" وبعض الأدعية مثل الدعاء للميت "الله يرحمه" والدعاء للمتسول "الله يفتح، الله كريم، ربي يسهل...إلخ.

وكذلك في المناسبات هناك صيغ وعبارات لا مفرّ للفرد من قولها في مجتمع مسلم ومهما كان توجهه مثل الأعياد والأفراح والمآتم... وكلها مرتبطة بالدين إن لم تكن باللفظ والمعنى، فهي مرتبطة بالمعنى (وغالبا ما يكون دعاء وإن لم يقصد).

ومن هنا نستطيع الحكم بأنه لا يمكن عَلْمَنَة اللغة العربية على الخصوص أي لا يمكن فصل الدين عنها مهما حاول المحاولون الذين يرفضون ويشمئزون حتى من التحية التي كرّمنا بها الإسلام وهي "السلام عيكم" وهي في ذاتها ذكر من الأذكار التي يؤجر عليها المسلم لأن "السلام" اسم من أسماء الله الحسنى.

ومن العجيب في هذا المجال وهو أبرز دليل على أن الدين يفرض نفسه في اللغة اليومية للناس، أن الأعاجم المسلمين الذين لا يحسنون اللغة العربية يرددون بعض الألفاظ والعبارات مثل التي ذكرناها وغيرها وقد لا يفهم بعضهم معناها، ولكن الدين فرضها عليهم بل الأوضح من ذلك كلّه أن شعوبا بأكملها قد تعرّبت وصارت تتكلم العربية عندما اعتنقت الإسلام ولم تكن لغتها الأصلية عربية فهل كانت وسيلة أخرى غير الدين بإمكانها أن تفعل ذلك؟ والجواب لا وألف لا بدليل أن الاستعمار في كل بلد حاول فرض لغته بكل الوسائل ولم يتمكن.

6- الدين يضفي على بعض اللغة أحكامًا وصفات معينة: و من بين هذه الأحكام و الصفات ما يلي : [1]

أ- **القداسة** : فبعض ألفاظ اللغة تكون مقدسة بعامل حكمها الديني فتكون لها أحكام شرعية خاصة في التلفظ بها و التعامل معها ، و ذلك مثل :
كلام الله سبحانه و تعالى و أسمائه وصفاته الحسنى و أسماء الملائكة و الأنبياء و الأذكار.

[1] ينظر : السعران ، اللغة و المجتمع ، ص 129 و ما بعدها

ب- **التحريم أو عدم اللياقة** : و بعض العبارات و الألفاظ الأخرى في المقابل يجعل الدين ذكرها محرما ، مثل : كلمة الكفر و اللعن و سب الدين و الغيبة و النميمة و شهادة الزور .

و منها ما لا يكون محرما و لكن ذكره غير لائق في حكم الدين فهي تذكر في مجالس و مواضع دون أخرى ، مثل : ما يتعلق بالجنس كأسماء العورات، و التبرز و التبول.. و هي التي تتخذ لها بعض اللغات كانيات خاصة تفاديا للتصريح بها.

ت- **الغموض** : اللغة الدينية فيها بعض الألفاظ و العبارات الغامضة ، و ذلك كاستعمال القرآن الكريم للحروف المقطعة في أوائل السور ، مثل : آلم ، كهيعص ، حم ، يس .. و كذلك ما يوجد في لغة الكهان و الباطنية و الصوفية من رموز و مجاز لا يفهمها إلا أصحابها أو أتباعهم .

ث- **المناسبتية** : ألفاظ و عبارات أخرى يفرض الدين أن تكون في مواضع و مناسبات مخصومة بمعنى أنها قد تكون سليمة المعنى في كل الأحوال و لكنه لو قلتها في غير الموضع الذي خصصت له لخالفت العرف الديني ، و من ذلك قولنا " عظم الله أجركم " فهذا دعاء معناه معقول و مقبول في كل وقت و لكن لو قلته في غير مناسبة الموت لاتهمك الناس في عقلك.

و قس على ذلك كل ألفاظ و عبارات التعزية و التهنئة و التحية.. و كذا العبارات التي يقولها المتسول أو تقال له .... إلخ

ج-**الحُكْمِيّة** : بمعنى أن بعض الألفاظ و العبارات إذا ما قيلت يترتب عليها حكم شرعي معين له أثره في الحياة مثل : صيغة الشهادتين التي يصير بها قائلها مؤمنا بعد ما كان كافرا ، و تنجر عن ذلك أحكام أخرى في حياته ومثلها كلمة الكفر وصيغة عقد الزواج و " لفظ الطلاق " و صيغ عقود البيع كلها لولا الدين لكانت عبارات عادية في كلام الناس و لكن الدين يعطيها قيمة الحكمية هذه .

- **خاتمة :**

نلخص من كل ما سبق إلى حقيقة مفادها أن علاقة اللغة بالدين علاقة قوية بل نستطيع أن نقول هي علاقة وجود أو لا وجود، فلا يمكن أن يوجد الدين بلا لغة ما دامت ممارسته بها

والدعوة إليه بها وفي الوقت نفسه فبقدر ما يكون الدين منتشرا في المجتمع بقدر ما تكون اللغة الخاصة به أقوى ومنتشرة أكثر والعكس صحيح، أي بقدر ما يبتعد أفراد المجتمع عن الدين تكون لغة هذا الدين (أيّ دين) ضعيفة في المجتمع، وأبرز مثال على ذلك ضعف اللغة اللاتينية وتقلّصها في أوروبا (وهي لغة الدين المسيحي ولغة الكنيسة) وذلك حينما بدأ نطاق الدين المسيحي يضيق مع بداية عصر الثورة التكنولوجية والصناعية (كما يسمونه عصر التنوير)، (وإن كانت هناك أسباب أخرى لغياب اللاتينية مع هذا) مما اضطر رجال الدين المسيحي أن يلجأوا في أواسط القرن الماضي إلى الإفتاء بجواز إلقاء خطب الوعظ باللغات المحلية التي يفهمها الجمهور.. في حين أن اللغة اللاتينية ما تزال مقدسة ومحافظا عليها أشد المحافظة في الفاتيكان حيث الكنيسة العالمية المسيحية.